الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ١٩٩٩٣ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٧١ — الثلاثاء ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٣ — ٧ من مارس سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

فلسطين

بعد أن وقفت الحكومات العربية موقفها المجيد من المسألة اللبنانية ، وبعد أن كللت الجهود التي بذلت لنصرة الحق وإزهاق الباطل ، بذلك النجاح الباهر ، أخذت تلك الحكومات تسعى مرة أخرى لنصرة جارتنا وشقيقتنا فلسطين ؛ ولعلها — إن شاء الله — بالغة في سعيها هذا نجاحا لا يقل عما أصابته أمس في مسألة لبنان .

إن الذين يرقبون الجهود المبذولة في أمر الوحدة والتحالف بين الأقطار العربية ، كانوا دائما مشفقين من أن تقوم في سبيل تلك الجهود عقبات شديدة حينما تعترضها المشكلة الفلسطينية ... وأنها لن تلبث عندئذ أن تفتر أو تهمد . ومن حسن الحظ أن هذه الظنون لم تتحقق ؛ وأن الحكومات العربية لم تبد أدنى فتور أو تردد أمام هذه المشكلة التي يتوهم كثير من الناس أنها أعقد المشاكل في العالم العربي كله .

والصحيح أن مسألة فلسطين ليست أقل قبولا للحل من أية مشكلة أخرى ، إذا هي عولجت بروح خالصة ، وبعد عن الشهوات والأهواء ، وتحرر من تلك النزعات الشريرة ، التي خاضت الديمقراطيات هذه الحرب للقضاء عليها ، أما إذا كانت الوسائل المتبعة في معالجتها مبنية على القهر والبطش ، والبعد عن الإنصاف ، فإن مشكلة فلسطين ستزداد على الزمن تعقدا .

لقد عانت جماعات اليهود في كثير من أقطار العالم من الشقاء والعذاب والاضطهاد ، ما هو معروف ، وذلك في العصور الوسطى والعصور الحديثة ، ولكن هنالك دولة واحدة ومجموعة واحدة من الأقطار عاش فيها اليهود في أمن ويسر ورخاء ، ناعمي البال قريري العيون ، متمتعين بالحظوة والعناية والرعاية ، تلك هي الدولة العربية ، والأقطار الإسلامية . ولقد بلغ من اندماج اليهود في الحضارة

العربية أن الأدب العبرى فى العصور الوسطى تأثر كثيراً بالثقافة العربية فى الشرق وفى إفريقيا والأندلس . وعند ما لقى اليهود فى أسبانيا العذاب والاضطهاد فى ظل « محكمة التفتيش » ، دعاهم السلطان العثمانى سليمان لأن ينزلوا فى دولته الواسعة الأطراف ، حيث نعموا بالأمن بعد الخوف ، وبالعز بعد الذل ، وبالرخاء بعد الشدة .

وهكذا كانت الأقطار التى يسودها الإسلام ، هى الوحيدة فى العالم التى لم ينشأ فيها فى أى وقت من الأوقات روح بغض اليهود . لهذا كان من العجب أن يكون الشعب العربى اليوم هو الذى يدفع الثمن الرهق للاضطهاد الذى عاناه اليهود فى البلاد غير العربية . ومن العجب ألا تحس جماعات اليهود أنهم بهذا يقابلون الإحسان بالإساءة والجميل بالنكران ، ويصبحون أداة لاضطهاد شعب برىء ، وهم الذين طالما ضجوا بالشكوى من الاضطهاد .

إن من المعقول المقبول أن يتعلق الشعب اليهودى بفلسطين ، وبالأرض المقدسة التى [illegible] عاش فيها أنبياء بنى اسرائيل ؛ وأن ينظر إلى ذلك القطر نظرة إكبار وإجلال . ومن الضرورى أن تكون هنالك صلة مقدسة بين اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وبين ذلك القطر الكريم . كما وللمسلمين صلة وثيقة بالجهات المقدسة فى الحجاز وفلسطين . ولكن أقل تفكير — بعيد عن التحمس والطيش — يرينا أن تلك الصلة لا يمكن أن تكون صلة روحية ، وأن « الوطن القومى » فى فلسطين لا يمكن أن يكون إلا وطناً روحياً . ومن العبث أن يبنى هذا الوطن الروحى على دعائم من المشاريع الصناعية والتيارات الكهربائية ، والمداخن الطويلة ، التى شوهت وجه ذلك القطر الكريم ، ومسخته مسخاً أليماً .

إن فى العالم اليوم من اليهود نحو سبعة عشر مليوناً من الأنفس . كان توزيعهم قبل الحرب الحاضرة على الصورة الآتية ، ونسبتهم المئوية لمجموع السكان :

الولايات المتحدة	٤ر٧٢٠ر٠٠٠	(٤٪)
بولنده	٣ر٣٢٥ر٠٠٠	(١٠)
اتحاد السوفييت	٣ر١٨٠ر٠٠٠	(٢)
رومانيا	٨٠٠ر٠٠٠	(٤)
المجر	٥١٠ر٠٠٠	(٦)
ألمانيا	٤٧٥ر٠٠٠	(١)
فلسطين	٤٤٠ر٠٠٠	(٣٠)
بريطانيا	٣٥٠ر٠٠٠	(١)
تشكوسلوفاكيا	٢٩٠ر٠٠٠	(٢)
فرنسا	٢٨٠ر٠٠٠	(١)
الأرجنتين	٢٧٥ر٠٠٠	(٢)
كندا	١٨٥ر٠٠٠	(٢)
مراكش	١٧٥ر٠٠٠	(٣)
ليتوانيا	١٦٥ر٠٠٠	(٧)
سائر الدول	١ر٧٠٦ر٠٠٠	—

فهذا العدد العظيم من الأنفس لا يستطيع أى عقل منصف أن يتصور أن يتسع له قطر من فلسطين لا تزيد مساحته على عشرة آلاف من الأميال ! ولقد يرى بعض المتحمسين من قادة اليهود أن من الممكن ، بتحويل فلسطين إلى قطر صناعى ، أن يتسع لبضعة ملايين من الأنفس ! بل لقد يذهب بعضهم إلى أبعد من هذا . ولكن هذه التصورات لا تعدو أن تكون أوهاماً يولدها الخيال . والذين يحبون الأرض المقدسة وتربطهم بها تلك الروابط الروحية العزيزة ، يؤلمهم أشد الألم أن يتصوروا ذلك القطر الكريم ، وقد شوهته تلك المشروعات الصناعية المفتعلة ، وألبسته ثوباً من الدمامة يعادل ما نراه فى الأقطار الصناعية فى أوربا .

لقد وسعت فلسطين نحو نصف مليون من اليهود ، يعادل ثلث سكان القطر كله . وبهذا زادت نسبة اليهود على نسبتهم فى أى قطر من الأقطار بمقدار كبير . ولا يمكن لأى منصف أن يطلب من سكان فلسطين أن يضحوا بكيانهم الشعبى بأن يسمحوا لأنفسهم بأن يصبحوا قلة ضئيلة فى وطنهم وديارهم .

وليس تغلغل اليهود فى فلسطين مقصوراً على مجرد النسبة العددية ... بل لقد استطاعوا بفضل أموالهم الطائلة

أن يشتروا مساحة عظيمة من الأراضي الزراعية ، أكثرها في الأقاليم السهلة مثل مرج ابن عامر الذي يعد أغنى بقاع فلسطين وأكثرها خصوبة . وفي الخريطة المرسومة هنا وهي منقولة عن تقرير القومسيون الملكي ، برئاسة اللورد بيل ، لعام ١٩٣٦ نرى كيف استطاع اليهود أن يمتلكوا مساحات واسعة في الجهات الشمالية ، وهي الأكثر ماء وخصوبة ، وعلى سواحل البحر المتوسط من عكا إلى قرب الحدود المصرية ، وقد استطاعوا أن يستصلحوا كثيرا من الأراضي الرملية التي لم تكن تزرع من قبل . ولكن من الخطأ أن يتوهم أحد أن جميع أراضي المستعمرات اليهودية هي من هذا الطراز ، بل أكثرها أرض صالحة كانت تزرع من قبل .



وهكذا نرى أن لليهود اليوم في فلسطين عدداً كبيرا من المهاجرين ، قد استقروا في الأرض المقدسة واستوطنوها كما أنهم يمتلكون نسبة عالية من الأرض الجيدة فيها ، يزرعونها ويستثمرونها ، إلى جانب مشاريعهم الاقتصادية الكثيرة ، تجارية كانت أم صناعة .

وليست المشكلة الحقيقية التي تواجه اليهود اليوم هي مشكلة الهجرة ، والحاجة إلى أقطار مثل فلسطين لكي يهاجروا إليها ؛ فإننا إذا تأملنا تاريخ الهجرة إلى فلسطين رأينا ظاهرة غريبة . وهي أن نحو خمسة وسبعين في المائة من أولئك المهاجرين جاءوا من وسط أوربا وشرقها . وأن الذين هاجروا إلى فلسطين من بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا عددهم ضئيل جدا بالنسبة إلى مجموع المهاجرين ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية — وهي التي تحتوي نحو خمسة ملايين من اليهود ، أي أكثر مما يحتويه أي قطر آخر — لم يهاجر منها إلى فلسطين سوى ثمانية آلاف نسبتهم إلى مجموع المهاجرين ثلاثة في المائة !

فمن الواضح أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها جماعات اليهود اليوم ليست الحاجة إلى المهاجرة إلى فلسطين التي لا يمكن أن تتسع لأكثر من نسبة صغيرة منهم ، بل الحاجة الحقيقية هي أن يعامل اليهود في الأوطان التي يعيشون فيها معاملة حسنة مثل التي يلقونها في غرب أوربا وفي الولايات المتحدة ، وهذه هي الوسيلة التي يمكن أن تحل بها المشكلة اليهودية ، وإلى هذا السبيل يجب أن توجه جهود قادة اليهود .

إن أول مهاجرة لليهود إلى فلسطين لم تحدث بعد الحرب الماضية كما يتوهم كثير من الناس . فإن هناك مستعمرات قديمة أسست في أواخر القرن الماضي ، وأوائل القرن الحالي ، وهي من أحسنها وأكثرها نجاحا . ولقد أسست في ظل الحكم الإسلامي ، دون أن تسبب نفورا بين الطوائف التي تسكن فلسطين . وعند نهاية الحرب الماضية كان في فلسطين نحو ثمانين ألفا من اليهود ، يعيشون في وئام وتفاهم مع سائر السكان .

من الخطأ إذن أن يعزى تأسيس الوطن القومي لليهود إلى تصريح بلفور الصادر عام ١٩١٧ ؛ فإن كل ما صنعه هذا التصريح هو أنه قال إن الحكومة البريطانية تنظر بعين الرضى إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ،

ولكن ذلك الوطن في صورته الصحيحة قد أنشيء قبل ذلك العهد . وكان من الخير أن إكمال ذلك الوطن — إن كان في حاجة إلى إكمال — يظل كما كان من قبل أمراً بين اليهود والعرب ، وأن يتمشى بروح الاعتدال التي أسس بها . ولقد كان من المحزن أن الأمور لم تسر في هذا المجرى ، وأن اليهود قد قرروا ألا يكتفوا بإنشاء « وطن قومي » في أرض فلسطين ، بل أن يحولوا فلسطين إلى دولة يهودية . فنادى زعيمهم بأن فلسطين يجب أن تغدو يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية وبلجيكا بلجيكية . وهذا القول — إن دل على معنى — فإنه يدل على إصرار قديم على السيطرة التامة على القطر الفلسطيني ، وتحويل السكان الأصليين إلى أقلية ، قليلة الخطر .

هذه السياسة قد عبر عنها الزعماء اليهود صراحة منذ عام ١٩٣٠ ؛ واضطرت الحكومة البريطانية لأن ترفضها بصورة رسمية لا تقبل الشك أو الإبهام في عام ١٩٢٢ ؛ ثم كررت هذا الرفض في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ ؛ فقد جاء في البند الرابع من ذلك الكتاب العبارة الآتية :

«لقد سبق لحكومة جلالة الملك في الوثيقة الرسمية التي صدرت في عام ١٩٢٢ أن أعلنت أن تصريح بلفور لا يرمي — ولم يقصد به أن يرمي — إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية . والحكومة البريطانية لا تقبل مثل هذا التأويل ولا تقره . ولكن هذا البيان لم يمح الشكوك التي لا تزال قائمة . ولهذا فإن حكومة صاحب الجلالة تعلن اليوم بكل قوة أنه ليس من سياستها — ولم يكن في سياستها في أي وقت — أن تجعل فلسطين دولة يهودية . بل هي ترى أن مثل هذا الأمر مناقض تمام المناقضة لالتزاماتها نحو العرب في صك الانتداب ، ومناقض للعهود المقطوعة للعرب في مناسبات عديدة » .

ذلك ما جاء في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ ، وهو الوثيقة التي تشتمل على الخطة النهائية ، التي قررت فيها الحكومة البريطانية السياسة التفصيلية التي تنوي اتباعها في فلسطين ، تلك الخطة التي اهتدى إليها سياستها بعد التجارب القاسية التي مرت بالقطر الفلسطيني وسكانه في مدى تسعة عشر عاما . وقد التزمت الحكومة البريطانية أن تمضي في تنفيذ هذه السياسة ، التي كانت وليدة التفكير الطويل والمشاورة بينها وبين اليهود من جهة ، وبين العرب من أهل فلسطين ، وممثلي الأقطار العربية — ومنها مصر — من جهة أخرى .

وتتلخص السياسة التي تعهدت بريطانيا بتنفيذها في ثلاثة أمور : أولها أن تنشيء في فلسطين حكومة دستورية وطنية بعد مضي عشر سنوات ، وأن تمهد لذلك بعد انقضاء خمس سنوات من استتباب الأمن في فلسطين . الثاني : أنها لن تسمح بالهاجرة إلى فلسطين لأكثر من ٧٥٫٠٠٠ يهودي وذلك في بحر خمس سنوات ابتداء من أبريل عام ١٩٣٩ إلى نهاية مارس عام ١٩٤٤ . وثالثها : تنظيم بيع الأراضي ، بحيث لا يتعرض العرب لضروب من الشدة والإرهاق بسبب إقبال اليهود على شراء أرضهم .

إن هذه الوثيقة الصريحة هي عهد مقطوع من الحكومة البريطانية . وجميع الشعوب العربية تتطلع بشيء غير قليل من الاهتمام ، لكي تراها تفي بهذا العهد وفاء صريحا لا مواربة فيه ولا مداورة . ففي نهاية شهر مارس المقبل تنتهي الفترة التي يسمح فيها لليهود بالهاجرة إلى فلسطين . وبعد نحو شهرين يحين الوعد الذي تعهدت فيه حكومة بريطانيا بأن يشترك الفلسطينيون في حكم بلادهم ، وأن تنشيء نواة الحكم الدستوري فيها .

ليس من شك في أن الحكومة البريطانية تتعرض اليوم لضغط شديد من هيئات وأفراد ذات نفوذ كبير ، بقطع النظر عما تقوم به جماعة الإرهابيين في فلسطين نفسها ولكن السياسة الحكيمة تقضي بأن تمضي بريطانيا في تنفيذ ما تعهدت به . لأن هذا أمر لا يرتبط بعلاقتها من الشعوب العربية وحدها بل هو متصل بمركزها الدولي كله ، وبسمعتها بين شعوب العالم في هذا الوقت العصيب .

محمد عوض محمد

المـــــلاريا

للدكتور أحمد زكى بك

حدثتك عن جرثومة الملاريا ، كيف تدخل جسم الإنسان ، فتطلب خلايا دمه الحمراء لتسكنها . ثم وصفت لك كيف تتطور هذه الجرثومة فى هذه الكرات أشكالاً مختلفة تنتهى بفقئها هذه الكرات ، ثم خروجها عنها ، ذريةً جديدة من الجراثيم أضعافَ تلك التى دخلت هذه الكرات أول مرة .

واليوم أحدثك عمّا تصنع هذه الجراثيم فى جسم البعوضة بعد أن حدثتك عما تصنع فى جسم الإنسان .

وقد يكفى أن أقول لك إن البعوضة تخرق جلد الإنسان بأبرتها ، ثم هى ترشف من دمه بفمها ، فيدخل هذا الدم بالذى فيه من جراثيم إلى جسم البعوضة ، ثم هى تعيد هذه الجراثيم إلى دم رجل آخر عند ما تجوع مرة أخرى فتطلب الطعام .

ولكنى بهذا أكون قد ضيعت عليك صورة يقف عندها الفكر يتأملها فى متعة غير يسيرة ولا ضئيلة ، وأكون فى سبيل البساطة قد حجبت عنك وجه الحقيقة الجميل .

فاعلم أن الجراثيم التى تدخل جسم البعوضة هى غيرُ تلك التى وصفتُ لك فى دم الإنسان . فتلك التى فى دم الإنسان جراثيم من نوع واحد ، جراثيمُ سواسيةٌ ، تتكاثر بالتشقق أنصافاً وأرباعاً وأثماناً . وليس فيها ذكر أو أنثى ، فليس فيها تلقيح ، وليس فيها بيض ، وليس فيها حمل ، ولا شىء غير الانشقاق .

وهذه الجراثيم تعلم هذا من نفسها ، وتعلم أنه لا فائدة من دخولها إلى جسم البعوضة على هذا الحال . فجسم البعوضة يجب أن يكون التكاثر فيه ، لا انشقاقاً ، ولكن تلقحاً . يجب أن يكون التكاثر فيه بين ذكر وأنثى ، وإذن وجب على هذه الجراثيم ، وهى فى دم الإنسان ، أن تخلق من نفسها هذا الذكر وهذه الأنثى .

وهى تفعل هذا عن طيب خاطر .

ففى طور من أطوار الحمى فى دم الإنسان ، بينما أكثر الجراثيم يتوالد فى الكرات الحمراء انشقاقاً ، وبذلك يخلق حشداً عظيماً ، وجيشاً عرمرماً ، يغزو تلك الكرات فيفقأها ألوفاً من بعد ألوف ، تجد طائفة من هذه الجراثيم اشتغلت ، فى سبيل حفظ النوع ، بتحويل نفسها إلى جراثيم جديدة ، بعضها ذكور وبعضها إناث . وهذه إذا تكونت ظلت فى مكانها من دم الإنسان تنتظر البعوضة حتى تجىء فى طلبها . ومن العجيب أن هذا الذكر وهذه الأنثى ، على وحدة الدار وقرب المزار ، لا يتزاوجان فى دم الإنسان أبداً ، فإذا جاءت البعوضة فشربت من دم المريض ، حملت الزوجين فيما حملت من دماء .

وهذه الذكور وهذه الإناث إذ تنشأ فى كرات الدم بجسم الإنسان أول ما تنشأ ، تنشأ صغيرة داخل هذه الكرات ، حتى لا يكاد الناظر يفرق بين ذكرها وأنثاها ، فإنما هى عند ذلك أجنة فى أرحام (شكل ١ حرف ا) . ثم يأخذ الذكر فى الكبر ، وتأخذ الأنثى فى الكبر حتى تملأ كل منهما كرته الحمراء أو يزيد عنها . ويتشكل الذكر غير تشكل الأنثى (شكل ١ حرف ب) . ويتشكل ذكران حمى الثلث الحميدة غير تشكل ذكران حمى الربع . ويتشكل ذكران حمى الربع غير تشكل ذكران الحمى الخبيثة . وكذلك تختلف الأشكال فى إناث هذه من إناث هذه وتلك . وينتفع الفاحص الميكرسكوبى من اختلاف هذه الأشكال تحت المجهر فى تعرف نوع الحمى .

وتدخل الذكور وتدخل الإناث فى الدم المرشوف إلى جوف البعوضة ، فلا يلبث الذكر أن يفقع كرته الحمراء ، ولا تلبث الأنثى .

أما الذكر فتنفقع كرته عن خيوط كأطراف الكرابيج

تأخذ تسبح في سائلها تبحث عن الأنثى تلقحها (شكل ١ حرف حـ). وأما الأنثى فتنفقع كرتها الحمراء فتخرج منها قوراء كالقمر (شكل ١ حرف و).

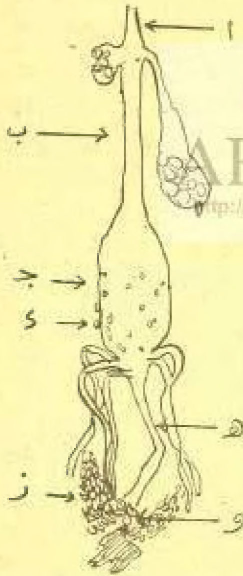


(شكل ١)

ويتزاوج الاثنان (شكل ١ حرف هـ) فيتكون منهما جسم (شكل ١ حرف و) يتشكل ويستطيل حتى يصير كالدودة الصغيرة (شكل ١ حرف ز)، وهي دُوَيدة سبّاحة، فتأخذ هذه الدُوَيدة تسبح تطلب جدار المعدة من البعوضة. فإذا وجدت هذا الجدار دخلته، فاستوطنته. وفي هذا الجدار تتكور (شكل ١ حرف ح)، ثم هي تقضي فيه ستة أيام أو نحوها يزداد فيها حجمها زيادة عظمى حتى ليبلغ قطرها ما بين ٣٠ و ٤٠ ملّيمليمترا. وتظهر فيها فجوات فتتراءى كالإسفنج (شكل ١ حرف ط). ثم يتحول جوفها فينقسم إلى عِصِيّ (شكل ١ حرف ى). ثم ينفقع الغلاف عن هذه العصيّ، فتخرج كالدود استطالة (شكل ١ حرف ك). وهذه تغادر جدار المعدة من البعوضة فتدخل جوف هذه المعدة. ثم من المعدة تذهب إلى الغُدد اللُّعابية للبعوضة. وتعضّ البعوضة رجلا لتشرب من دمه، فيتلوّث دُمه بلعابها، فتدخل دمه تلك الجراثيم، وهي إذا دخلت دمه تكوّرت كالبذور.

وتنسى هذه البذور أنها تكوّنت من أب وأم، فتأخذ تَحشد حشودها، وتُجيّش جيوشها، لا بالتزاوج كما فعل آباؤها، ولكن بالانشاق على ما وصفنا في المقال السابق. والتكاثر بالتزاوج بطيء لا يُسعف. والتكاثر بالتشقق سريع، وهو حيلة الحيوانات الدنيا، والنباتات الدنيا في مغالبة الحياة، وهي حياة لمَمْشُوك شديدة قاسية.

وكما أن الفاحص يستطيع تحت المجهر أن يتبين أطوار الجراثيم في دم الإنسان، فكذلك يستطيع هو أن يتبين هذه الذكور وهذه الإناث وما ينتج عنهما. ويتبينهما في معدة البعوضة وفي غُددها اللعابية.



(شكل ٢)

جسم البعوضة — ا: المريء — ب: جزء المعدة الأمامي — حـ: جوف المعدة — د: الجراثيم في جدار المعدة — هـ: الأمعاء — و: الاست — ز: المبيض وفيه البيض

وأقبيك أن تستصغر البعوضة ، فتُنكر أن يكون لها معدة ، ولها غُدَد ، ولها أمعاء . فاعلم أن لها غير ذلك فمٌ كفمك ، ومرئ كمريئك ، ومعدة كمعدتك ، وهضم كهضمك ؛ ولها ما يسمّى كأمعائك ، ولها مخرج كمخرجك . وكل هذه يُفصّل بعضها من بعض بإبرة التشريح تحت العدسات .

فهذه دورة حياة الجرثومة في دم الإنسان . وهذه دورة حياتها في جوف البعوضة

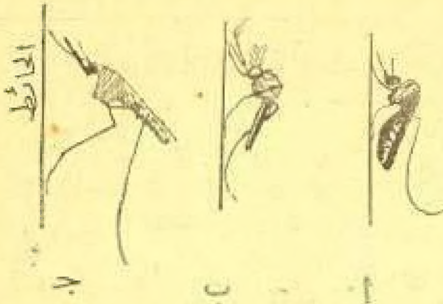
فما بال حياة البعوضة نفسها ، وما أطوارها ، وما صلة هذه الأطوار بحمى الملاريا ؟

ألا فاعلمْ أنه ليس كلُّ البعوض ينقل عدوى الحمى . وأن الذى ينقلها جنس من البعوض أطلقوا عليه إسم أنوفاليس anophales . وهـذا الجنس [illegible] تبلغ نحو المئتين ، تختلف فيما بينها اختلافاً يسيراً ، ولكنها تشترك في مقدار من الصفات تكفى لأن تجتمع بها جميعاً في جنس واحد .

وبعوضة الأنوفاليس ، كسائر البعوض ، تتطور من البيضة ، إلى الدودة ، إلى العروس ، إلى البعوضة البالغة .

ولنبدأ بالبعوضة البالغة لأنها هى الطور المعروف المألوف .

وأول شئ تستطيع أن تُميّز به هذه البعوضة إذا ظهرت في منزلك هو وضعها على الحائط . فهى تميل رأسها إليه ، وتبعد ذيلها عنه . وأنت ترى جسمها كأنه في خط واحد يصنع زاوية مقدارها ٤٥° درجة أو نحوها مع الحائط ، فكأنها تريد أن تنطح الحائط أو تخرقه (شكل ٣ رقم حـ) . أما الأجناس الأخرى من البعوض فلها أوضاع غير هذه (شكل ٣ حرف ب ، ا) . وفى هذه الأوضاع الأخرى تجد الجسم كله ليس في خط مستقيم واحد .



(شكل ٣)

وتجد البعوضة تميل إلى الحائط بذيلها وبطنها لا برأسها .

ومما تتميز به بعوضة الأنوفاليس ترقّط أجنحتها . فلو فحصتها عن قرب وجدت بالجناح نُقطاً قاتمة على أرضية فاتحة . وهذه النقط القاتمة بيّنة ظاهرة لا سيما في ما يوجد في صنوف هذه البعوضة في مناطق الاستواء .

وبعوضة الأنوفاليس تتميز بغير هذا . ولكنها تفاصيل تخص الرجل الحشرىّ أكثر مما تهمّ القارئ العادىّ .

فهذه هى البعوضة البالغة .

أما البيضة ... وأما الدودة ... وأما العروس ...

أحمد زكى

زعماء الإسلام في القرن التاسع عشر :

٢ - السيد أحمد خان

١٨١٧ — ١٨٩٨

عاد السيد أحمد من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين في الهند عقلا ودينا ولغة وخلقا واجتماعا ، سواء في ذلك خاصتهم وعامتهم ، وصمم على أن يغزو الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين بكل الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة في علومها وفنونها قبولا حسنا ويستخدموها في ترقية حياتهم ، وأن يبذل الجهد في التوفيق بين الإسلام والمدنية ؛ فالإسلام في جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل ، غير مناهض لما يثبته العلم ، فإذا نُقّي مما لحقه وليس منه أمكن أن يُقبل المسلمون على العلم الحديث من غير حرج .

وضع من أول خططه بعد عودته أن ينشئ في الهند جامعة تكون للمسلمين كما كسفورد وكمبردج في إنجلترا ، ترقى الخاصة ، ثم هم يربون العامة . وطاف البلاد يدعو ويجمع المال ، ويكافح العقبات توضع في سبيله ، وأخيرا فاز بإنشاء كلية عليكره المشهورة ، وحدد لها أغراضا ثلاثة :

(١) أن تمزج للمسلمين الثقافة الغربية والشرقية في غير تعصب ولا جمود .

(٢) أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية ، فيجدوا فيها سكنا يقيهم شرور المدن ومفاسدها ، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — على أنهم في بيئة صالحة لخلقهم ، مرقية لآدابهم .

(٣) أن يعنى في نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معا ، وبعبارة أخرى أن يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط .

وتم بناؤها ، واستقبلت طلبتها ، تعلمهم على النهج الذي اختطه ، ونجحت في خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة مع سعة في العقل وسماحة في الدين ، وانتشر خريجوها في أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم ، وأصبحت كلمة « عليكره » لا تدل فقط على كلية أو جامعة ، وإنما تدل أيضا على نوع من العقلية الراقية والصبغة العقلية والاجتماعية الخاصة .

لقد أخذ الوطنيون من المسلمين على خريجي هذه الجامعة وطلبتها أنهم لا يشتركون في الحياة السياسية مع فضلهم وسعة عقلهم وغزارة علمهم ، حتى أنهم لا يضربون يوم تضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسي . ولكن هذه هي الصبغة التي صبغ بها السيد أحمد طلبته : إقبال على العلم وبعد عن السياسة .

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل في اتجاه آخر ، فأنشأ مجلة دورية سماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية في جرأة وصراحة ، وأخذ يفسر القرآن ، ويدعو ، إلى أن القرآن — إذا فهم فهماً صحيحاً — اتفق مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته ، وأنه يجب أن يفسر على ضوء العقل والضمير .

وتطرف أكثر من ذلك فكان يقول بأن الوحي كان بالمعنى دون اللفظ ، ذاهباً في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السيوطي في الإتقان إذ قال : « وذكر بعضهم « أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك »[1] .

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين وهيجوا عليه العامة ، وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يطعنه مرة بخنجر فنجا منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتا جريئاً في دعوته كما هي ، لم يتزحزح ولم يداج ولم يمار ، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول ، وما ينشر .

(١) وردت هذه العبارة في الاتقان ص ٤٥ جزء أول بالطبعة الكستلية .

لا يعبأ بنقد ، ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئة خطيرة ، كذلك كانت ناحيته السياسية ؛ فكان يرى أن الغرض الذى يجب أن يرمى إليه السياسى الهندى هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط ، ولكن هذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر فى الوطنية ؛ فيجب أن يكون عند كل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، ووطنيتها العامة عند كل الطوائف . أما النزاع الطائفى الدينى ، والنزعة إلى تقسيم الهند حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدى إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين فى العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفى كل الملل ، وقال : « فى قطر كالهند تتقسمه الطبقات ، وتتوزعه النزعات الدينية الحادة ، ولم تنتشر فيه التربية الصحيحة التى تعد الناس فيه كلهم سواء فى الحقوق والواجبات ، أرى ، بل أعتقد أن الانتخاب والتمثيل فى مثل الحالى ضرره أكثر من نفعه » . ولهذا رفض أن يشترك فى المؤتمرات السياسية ، والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء ، ووجه كل همه فى أحب الأعمال إليه من اشتراك فى المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهى أن يجمع مؤتمرا كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين فى الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام فى مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التى يرونها نافعة فى ذلك ، وكان الغرض الذى يرمى إليه « السيد » منه بث روح الائتلاف بين المسلمين فى البلاد الهندية وتبادل الآراء فى خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نفذ الفكرة ونجح المشروع ورأس السيد المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه .

لقد سيطرت روحه على المؤتمر فى حياته وبعد مماته ، وهى روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربية ، وأخذ كل شىء حسن فيها ، وخصوصا العلوم والآداب . « إن النور اليوم يأتى من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوروبا علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان فى مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » . إن « التعليم كان فى الزمن الماضى دينيا محضا لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف فى الأولى وأخل بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » .

« إن العلم اتخذ شكلا جديدا ؛ فلم تعد طبيعيات أرسطو ولا نظريات ابن سينا ولا جبر الخيام ولا كيمياء جابر بكافية ، وهى لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية » .

واهتم المؤتمر بالتربية وشؤونها ، ينتقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصلاح ويضع نصب عينه كلية عليكره « حتى تصل إلى درجة تساعد على ترقية النشء وتهذيبه ، وحتى تصل إلى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط الرحال للطلبة من جميع الأقطار الإسلامية ؛ وليس من البعيد عند ذلك أن ينبغ فيها أمثال : ابن سينا ، وابن رشد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويبحثون فيها وينهضون بها ، فإن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيماوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية ، يعيدون لنا سالف مجدنا القديم فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة ، وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتباً فى علم الهيئة الحديثة ؛ وهكذا » .

« والذى نريده أن ينشأ أولادنا فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب » .

عليكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة ، وأخلاقكم الوخيمة ، واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها .

«يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية فى معارفهم ، وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والأقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ؛ ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل إلا اقتطاف علومهم ، وإدخال مدنيتهم ليكون هناك شىء من التكافؤ بيننا وبينهم حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا الزدحم الشديد إلا التكافؤ»

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده فى المؤتمر الهندى الإسلامى وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه[١] .

لقد ظل حياته يكافح فى سبيل المسلمين فى الهند كفاحاً شديداً وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدان وطنية ، وأنه آلة إنجليزية . شجاع فى مقابلة كل ما يقف فى سبيله يجتاحه اجتياحا . يرى أن المسلمين مرضى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية . فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنىّ ، وناموا على الفراش الوثير فى المسكن الفسيح ؛ فعمل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وفقر ؛ وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة حديثة عاقلة مفكرة مجددة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكره تنتج فى البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة فى أسلوب جديد قويم ، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فآمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة وبركة ، لا كارثة ونقمة . وإن اختلفوا معه فى بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة فى اللغة الأردية . لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية فى عهد الظلام : عشق وغرام ومديح ، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع والأخلاق والدين والتاريخ والأدب ، فى أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة ، غزير بالمعنى خال من التصنع .

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر الهندى نشرت فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦ ، وسنة ١٩٠٢ .

لقد بدأ « السيد » حياته فى اللغة الأردية شاعراً . فكان شاعراً عاديا لم يلفت النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحا مبينا ، وبدأ ذلك فى جريدته التى أنشأها واسمها « سيد الأخبار » ، فلما أنشأ بعدُ جريدة «تهذيب الأخلاق» بلغ فى ذلك الغاية وائتمّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد ، فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، وبذلك أخذ الأدب الأردى يشق طريقه إلى التقدم . يقول هو فى ذلك :

« لم آل جهدا فى ترقية العلم والأدب باللغة الأردية على صفحات جرائدى المتواضعة ، واتخذت فى ذلك أسلوبا يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف . تجنبت فيه الألفاظ الرنانة والاستعارات والكنايات الوهمية التى تنحصر فى الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجهدت فى تشويق القارىء إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعرى وعواطفى إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته فطارق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يلقى عليه ضوءا كاملا لا يتركه حتى يكون واضحا فى جميع جوانبه .

ثم وجه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيرا من خير ما فى الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأى فى الترجمة إلى اللغة الأردية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية فى الترجمة ، ويرى أن هذا أسلوب واه ضعيف وإنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضا جديدا بطريقة تتفق وذوق الهنود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجد فى صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ووضع المصطلحات ، وسار على هذا النهج طلبته .

قال الأستاذ شبلى النعمانى — عالم الهند العظيم — : «طالما كان النزاع بينى وبين السيد أحمد شديدا فى آرائه الدينية ، وطالما فندت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالى الذى استخدمه فى شرح أفكاره ، فكان أسلوباً رائعاً منقطع النظير مملوءا بالفكاهة الحلوة والنادر الظريف .

حدث مرة أن مولوى على بخش نقده نقدا مراً ، ثم

ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علمـاء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد فى « تهذيب الأخلاق »

« ما أعجب الحادى ، قد جعل منى كافراً وجعل منه حاجاً مؤمناً . إنى لى شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خرب بيتى بيتُ الأوثان ، قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن الحادى كالأمطار تخرج أحسن الورود فى البستان ، وأخس الكلأ فى الوديان » .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدته « تهذيب الأخلاق » كتب فى آخر عدد منها :

- طالما طرقت باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغى ، وإن تخبطوا عند انتباههم وترنحوا يمنة ويسرة ، فرحلة لا تستوجب الرضا ، ومع ذلك تستوجب الأمل فى يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعند ما ترى الأم طفلها مريضا تلح عليه أن يشرب الدواء المر وهو يلح : دعينى يا أماه قليلا فـأشرب بنفسى .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام حتى يستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المراض اشربوا اشربوا حتى يبرءوا ،

لا أكلّ ولا أملّ .

وظل كذلك يدق الباب ويلح فى شرب الدواء حتى أدرك الناس أخيرا جدا أنه قام بعمل جليل فى لغة قومه ، وعقليتهم ، وتعليمهم ، وتربيتهم ، مهما عابوه فى بعض تعاليمه الدينية وبعده عن التدخل فى السياسة القومية .

فلما زار البنجاب فى آخر حياته استقبل استقبال الملوك الفاتحين والغزاة القاهرين بل المصلحين الناجحين ، وأنساه نعيم الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه فبكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما يكون من أمثاله شجاعته التى لا تحد فى تنفيذ خطته وصراحته البالغة فى الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ بنقد الانجليز فى ترفعهم ، والوطنيين فى تخلفهم ، ورجال الدين

فى جمودهم ، ورجال السياسة فى تخيلهم ، على حد سواء . ويكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملى لا يكتفى بالنظريات والمبادىء يثيرها ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسعى ويكدح وراء مبادئه حتى يخرجها فى بناء وفى طلبة وفى معمل وفى مؤتمر وفى مجلة وفى درس . وهى ميزة ندر أن تكون فى المصلحين . ولذلك كانت نتيجته فى إصلاحه عملية كبيرة . فلو رأيت مسلمى الهند أيام سلفهم ورأيتهم أيام خلفهم لوجدتهم قد ارتقوا درجات فى العلم وفى الفكر وفى الخلق وفى اللغة وفى الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا إن تاريخ المسلمين فى الهند قد تحول واتخذ اتجاهاً جديداً فى حياته وبحياته لم نعد الصواب .

ثم نرى فى بعض المصلحين عيباً كبيرا وهو أنهم لا يرتون من يحمل عنهم ويكمل خطتهم ؛ وكثيرا ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التى لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى تظهر بجانبهم فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التى تتقن الملق والنفاق وتغذى بالوهم والأمل عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفر منهم الشخصيات القوية الأبية ترى فى نفسها نداً أو شبه ند لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم ، أو تتصنع النفاق للقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الرؤوس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوى جبار فى اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف ، باذل الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم ويستعملوا حقهم فى صراحتهم ، كما يستعمل حقه فى صراحته .

ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ويسلك منهجه ويحمل رايته ويصلح ما أخذ عليه من مثل : سراج على ، والسيد أمير على .

وأظن أن من الخير الوقوف عند هذا الحد حتى لا يمل القارىء ، على أن نعود إلى الموضوع بعد إن شاء الله .

أحمد أمين

صيد من بلاد الشام

٤ — لا تعاقبوا المجرمين لأنهم مرضى !

وهذا حديث فيه من الإمتاع ، قدر ما فيه الإبداع ، أصغى إليه ، في الجامعة السورية ، طوال ساعة ونصف ساعة ، صفوة من قضاة دمشق ، وأطبائها ، ومدرسيها وأهل الدراية فيها . أما المحدث فطبيب مشهور ، ووزير مذكور . وأما الحديث فهو : « الدوافع التي تدفع إلى الجنايات ، والأمراض التي تسوق إلى الجرائم » :

وحديث كهذا ، فيه نظريات العلماء ، وتجاريب الأطباء ، ونظرات المتفلسفين ، وفيه نقد لهذا المجتمع الضال بأبنائه ، ووصف لهؤلاء الأبناء النكوبين بعقولهم ، الناقصين في خلقتهم ؛ حديث كهذا جدير بأن ينشر ، خليق بأن يلخص ويذاع .

بدأ المحاضر حديثه بالسؤال : لماذا يجب البحث في الدوافع المرضية في الجنايات والجرائم ؟ فذكر أن الأمم كلما مضت في الرقي الاجتماعي ، أمعنت النظر في العلل التي تصاب بها الأفراد ، وتؤثر في المجتمع ؛ لأن البشر لم يخلقوا ليكونوا مجرمين جناة ، وليس الشر عندهم . فلا بد من علة تشوقهم للجريمة ، وتسوقهم إلى الجناية . فإذا عرفت هذه العلل ودرست ، ثم اتخذت الوسائل لدوائها ، والوقاية منها ، والابتعاد عنها ، والشفاء منها ، قل الضرر ، عندئذ ، وخف الفساد .

لقد كانت دراسة الجنايات والجرائم في الزمن الخالي ، تتناول نتيجة العلة التي دفعت إلى الإجرام . أعني الجريمة نفسها ، وكانت لا تحفل بالعوامل النفسية ووصفها . وكان حكم الحاكم ينحصر في تعيين نوع الجرم ، وتقدير العقوبة التي تجب له ، أملاً بإصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج . فكان العقاب غرامة يخسرها الجاني ، أو زمناً يفصل فيه عن الناس ليحرم ما كان له مباحاً ، أو عذاباً يقترن بالسجن فيمنعه من العود إلى الجرم عودة أخرى ، أو قتلاً يذهب به من هذه الدنيا ، حيث لا يصلح أن يكون فيها . وفي هذه الأحوال كلها كانت الجنايات تنتهي بقصاص وليس مداواة . فلما ارتقت معارف البشر ونالوا من الرقي طرفاً ، وتقدمت العلوم الاجتماعية ، وتناول الطب الشرعي والفلسفة الروحية درس هذه المسائل الدقيقة ، تبدلت نظرة ذوي الشرائع الاجتماعية ، إلى الجريمة . وأخذوا ينظرون إلى الحوادث نظرة تختلف عن النظرة الأولى . مقدرين الوجهة الاجتماعية ، والنفسية ، والأخلاقية . فغدت الجريمة مظهراً مفاجئاً لأمر نفسي ، تدفعه علل مرضية ، يجب وصفها ومنعها قبل ظهورها ، أو مداواتها والشفاء منها بعد ذلك . ومن ثم تنبهت البلاد الراقية إلى هذا ، فجعلت من السجون التي كانت مأوى البؤس والشقاء ، مشافي للإصلاح والمداواة ، لأن التهذيب أصلح للمجتمع من التعذيب .

إن الجنايات كأمراض الجسم ، لا تقع ما لم يتوفر عاملان . الأول : أحوال خاصة في الأفراد ، والثاني : الاستعداد في المجتمع . أما الأحوال الخاصة التي تسوق الأفراد إلى ارتكاب الجرائم ، فهي الدوافع المرضية التي تسيطر على المريض فتوجه أفكاره وتقيد إرادته ، وتدفعه إلى ارتكاب أعمال يراها القانون جريمة .

وإذا تكلمنا عن هذه الدوافع ، فلا بد من أن نستفيض بحثاً فيها ، لمعرفة أسبابها وأعراضها ، وآثارها ونتائجها . ولكي نعلم علاقتها بالقانون وصلتها به ، ونعلم بعد ذلك ، كيف ينظر القضاة إلى رجل مجرم ، كان مجنوناً ، أو معتوهاً ، أو أبله ، أو مريض العقل ؛ أينظرون إليه كما ينظر الطبيب الاجتماعي ، أو الفيلسوف أو العالم النفسي ، فيتناولونه بالإرشاد والإصلاح ، ويرسلونه إلى المستشفى ليبرأ ، أم يدفعون به إلى القصاص والتعذيب والقتل ؟

« ما هي الأسباب التي تدفع إلى ارتكاب الجريمة ؟ »

وإذا أمعنا النظر في أسباب الجريمة ، رأينا أن الإنسان يجرم ، إما خطأ : كرجل رام أن يصطاد طيراً فأخطأ مرماه ، فصاب رجلاً ، أو لأمر ، لا حول له على رده ، كمن رأى شرفه ينتهك . أو عرضه يستباح ، أو حياته تهدد ، فهاج وماج ، فقتل . أو كان تحت تأثير غضب شديد ، أو هيجان بالغ ، أو انفعال نفسي ، غشي على عقله ، فلم يجد رادعاً يخفف هيجانه ، فاستيقظ

فيه حس الانتقام، فأجرم. أو طفون حدث لها، وراقه هذيان، وصور وهمية، ودوافع مرضية تدفعه للجناية. أو الرض في العقل، يجعل صاحبه شاذاً عن سائر الأفراد الأصحاء، في إدراكه وشعوره، وحسه. أما الأسباب الأولى، فإنما يرتكب الإنسان فيها الجريمة تحت تأثير خلقي أو ضرورة ملجئة. أما النوع الأخير ففيه الخطر كله، لأن الدوافع المرضية التي جعلناها موضع حديثنا، لا تظهر لشكل إنسان. والمصابون بها منتشرون في كل مكان، ولأنها تسوق إلى الجريمة، فيكون صاحبها ضحية المرض الذي فتك به، وضحية الحاكم الذي حكم عليه ولم ينظر إلى مرضه. تُرى ما هي أسباب هذه الدوافع ؟

أسباب هذه الأمراض

ذكر علماء النفس أن الوراثة من الأسباب ذات الشأن التي تدفع للإجرام. واستدلوا على ذلك باكتشافات (ماندل). لقانون الوراثة، وتدقيقات (موريل) — أحد فلاسفة التربية — في الأمراض الذهنية.

وإلى جانب الوراثة، يمكن أن تكون عوامل أخرى تستدعي المرض العقلي وتدفع إليه، كالجهد العقلي، والإفراط في الشهوات، وإدمان المسكرات والمخدرات، وداء الزهري، وسوء نمو الجسم إبان الطفولة. فهذه — كلها — أسباب منقصة للعقل ومضعفة له، تجعله يقبل الأمراض، وتجعل صاحبه مريض العقل. ولكن مَن هو مريضُ العقل، الذي يقترف الجرائم بسبب مرضه وكيف نعرفه ؟

من هو مريض العقل ؟

مريض العقل هو ذو الانحراف عن الأنموذج الصحيح للإنسان. ويُعرف بفقدان التوازن بين مراكز الدماغ، فيبدو لا انسجام بين تفكيره، وعواطفه، وإرادته، وحركاته، وأعماله. ومرضى العقول، أنواع متنوعة. يختلفون في الظاهر، ولكنهم يتفقون في الباطن ! لأن لهم جميعاً نفساً واحدة مريضة، فتوازنهم مختل، ونموهم مضطرب. وقد نجد فيهم ذا الحافظة القوية، ولكنك تراه لا يستطيع أن يسخرها عند البحث في أمر أو التفكير فيه.

وقد نرى أحدهم لا يثبت في أمر، ولا يقدر على عمل. فإذا بلوته ألفيته كل يوم في واد ! فهو شاذ الأحوال، غريب الأفكار. وقد تلقى بينهم ذا الأحلام والأوهام والأميال، الغارق في أوهامه وأحلامه، لا يفارقها، ويأنس بها. أو تجد الأناني، ذا الأثرة البالغة، المخرّ عواطفه، المنقر غيره، أو تصادف ذا الأخلاق الفاسدة والآراء التي لا يقبلها عقل ولا مجتمع ولا دين.

فأناس كهؤلاء، تسوقهم دوافعهم المرضية إلى الجريمة، وتستحوذ عليهم، فقد يقتلون أو يسرقون أو ينتهكون الأعراض. ولكن كيف يُساقون، بل كيف تستحوذ الدوافع عليهم ؟

ما هو الاستحواذ olesession وكيف يكون ؟

تغزو العقل أفكارٌ وصورٌ مختلفات؛ فيقبل بعضاً ويقاوم في دخول بعض آخر. ولكن هذه الصور تعود ثم يرى كثيرة ما دامت الإرادة قوية أيضاً استطاع صاحبها ورفض التفكير، وهذا يُسمى (الاستحواذ الطبيعي) لأنه لا يحمل دوافع مرضي. أما إذا ضعف العقل وكانت الإرادة ضعيفة، غلبت الأفكار والصور الغازية، وطردت الأفكار والصور السابقة، واستحوذت على العقل وما فيه، بعد عراك وألم روحي. وهنا يُسمى (الاستحواذ المرضي)، لأنه غير طبيعيّ. دخل فأثّر فاستحوذ. وقد يستبد هذا الاستحواذ الإرادة. وقد يقوده إلى حيث يهلك. والإنسان يعلم ما يجري في نفسه ويعلم اضطراره إلى مسارقة تلك الآراء والصور ومسايرتها، وارتكاب ما لا يرضاه وجدانه وهو يرى شناعتها ويلهيها، ويخضع لها.

ويتصف الاستحواذ المرضي بصفات ثلاث :

١ — الصحو بالنظر للحادث.

٢ — النزاع القوي بين الأفكار السابقة والصور اللاحقة. ٣ — العذاب الروحي في أثناء ذلك.

ويلازم الدوافع المرضية أعراض لا يفارقها. الأول: عمل خيالي يصدر عن مركز منعزل عن الذهن دون اشتراك القوة البرهانية Reasonning، والثاني عجز مؤقت في الإرادة الحاكمة Self-Control.

ولكن متى يظهر سلطان الاستحواذ ويبدو أمره ؟

أوقات الاستحواذ

ويظهر سلطان الاستحواذ عند شدة الغضب ، ونهك القوى العقلية بالتفكير الدائم الطويل ، وعند الإفراط في الشهوات والملذات . أو عند إدمان المسكرات والمخدرات ، كالحشيش والكوكائين والمورفين ، وعند قراءة الروايات الخيالية التي تستولي على العقل بحادثاتها ، وتوقظ حسّ الإجرام ، أو إثر نزف دموي في النساء . وقد ساق المحدث أمثلة شتى نذكر منها أن امرأة تخطت الخامسة والثلاثين من عمرها ، أسقطت جنينها مرات . وصحب الإسقاط نزف دموي نهك قوتها ، وكانت أمها تدمن الخمر ، وكان أبوها مصابا بالزهري ، وجدها قد فلج في آخر عمره . زوجها قصّاب شديد البأس ، فكانت تساعده على تشريح اللحوم وتقطيعها ، وفي ذات يوم ظهرت دوافع الجريمة فيها ، فبينما كانت تقطع اللحم شعرت بميل قوي إلى قتل رجل كان أمامها ، وهاجت مشاعرها واستحوذت فكرة القتل عليها وألحت بها ، ولكن عندما حاول صد هذه الفكرة فلم يفلح . فلما ... وأشهرت المدية وهمّت بالقتل ، أخذت تجهش بالبكاء ، ثم سقطت على الأرض تنادي : أدركوني ، أبعدوه عني ، كيلا أرتكب جناية ... !

وحدث في (حلب) أن معلما ضعيف العقل ، هام بتلميذ له . فدلل التلميذ وقرّبه ولجّ المعلم في الهيام به وحبه ، فاستعطفه ، وتودد له ، كي ينال منه ما يشتهي ، فأبى التلميذ عليه ما أراد . وحدث أن نُقل المعلم إلى قرية بعيدة ، فكان يرد حلب كل أسبوع ليرى محبوبه وغلامه . فلما يئس من عطفه ، وخشي أن يتعلق به غيره أو يتمتع به سولت له نفسه أن يقتله [1] . وفي ساعة من ساعات جنونه ، استحوذت فكرة القتل عليه ، فترصده حتى مر ، وطعنه طعنات في قلبه ، فخر صريعا ، وعندما قبض عليه أقر بما فعل ، وطلب أن يقتل فداء عنه .

(١) هذا يشبه ذلك الذي دفع حبيبه كي لا يتمتع أحد غيره بها .

وأشباه هذه الحوادث التي تجري في حياة المجتمع سببها مرض العقل ، ووجود الدوافع المرضية واستحواذها على المريض . وقد تسوقه هذه الدوافع إلى السرقة ، ولو لم يكن ذا حاجة ، أو إلى استباحة أعراض الناس ، ولو كان محصناً . أو إلى حرق الدور ولو كان ذا دور وقصور . وهم ، جميعاً ، يرتكبون ما يرتكبون ، وهم يعلمون حقارته ودناءته ، ولكنهم يساقون ، ثم يستسلمون ، ويغلبون على أمرهم ، للأسباب التي مر ذكرها وراثية كانت أم مرضية أم كسبية .

نتائج الاستحواذ

إن مظاهر الاستحواذ تكون موقتة ، أو دائمة ، أو متقطعة . فتظهر يوماً وتختفي في يوم آخر . يقول (ماغنان) : إن هذه المظاهر موقتة ، ولكنها تداخلها في حياة المصاب العصبية لا تفارقه .

ومن نتائج الاستحواذ (الماليخوليا) Mélancolie ، وما يماثلها من حالات . فالمصاب بها يعذب روحه العذاب الأكبر من الوهم الذي يستولي عليه ، كخطيئة ارتكبها أو قصة شاهدها ، ثم اعتقد أن لا سبيل للتكفير عنها ، أو تذكر ما اقترفته يداه من مظالم وآثام ، فيطلب الخلاص مما يحس فيرغب في الانتحار . أو تستولي عليه أفكار وأوهام تدفعه إلى سلوك طرق شتى غريبة ، يخيل إليه معها أن أقاربه سيقاضونه أو يعذبونه أو يطاردونه ، أو يرى أن زوجه ستتألم لأمر ما فيفضل أن يقتلها ليخلصها من العذاب .

وكذلك ينمو في المصابين بمرض (البارانويا) أو الشذوذ العقلي والخلقي ، عداوة كراهة ونفور لأشخاص يظنون فيهم السوء . فيخيل إليهم أن أولئك يزاحمونهم في أعمالهم ، ويحاولون إقصاءهم عن مناصبهم . وقد يخيل إليهم أن أصواتاً قدسية تأتيهم فيدعي بعضهم النبوة ويدعو بعضهم إلى الإرشاد ، ويزعم بعضهم أنهم يغفرون الذنوب . وقد يقولون إن الشريعة تحرم قبول المناصب الرفيعة ، أو يتصدون لنقد نظام المجتمع ويصمونه بالفساد . ومن هذا النوع من يتظاهر بالعلم ، وأنه فوق كل مقام ،

وأنه الرجل الذي لا شبيه له ولا نظير ، فإذا أنكر شيئاً فسواء الخلق ، ومن خالفه فأحمق أو جاهل . ومنهم من يحب العظمة حباً جماً ، فيتعاظم على الخلق ، أو يعتقد أنه الكاتب الفذ الذي لم تكتب مثله أحد ، فهؤلاء كلهم مرضى عقول ، تسوقهم دوافعهم المرضية إلى القتل أو الشر أو السرقة أو الحقد .

وكذلك يكون الأمر في أصحاب (العته الشيخوخي) وفي الصرعى ، لأن المصاب بالصرع يظل ، بعد (النوبة) في حالة يمازجها غموض وتشويش وهذيان ، تجعل الدوافع أثناء هذه الحال قادرة على سوق المريض إلى ارتكاب القتل والانتحار .

العوامل النفسية التي تنتهي بالاستحواذ

ليست العوامل النفسية التي تنتهي بالاستحواذ ، أو الدوافع المرضية نوعاً واحداً ، بل هي سلسلة طويلة تختلف حلقاتها ، بدءاً بالنبوغ الخارق وانتهاء بالبلادة الشديدة ولذلك يجب تبيان أهم الأقسام الموجودة ، لمعرفة ما يتعلق بالقانون منها .

١ — العته التام : وهو حال من كان مشوه العقل

٢ — البله : وهو حال من كانت فيه بعض القوى العقلية غير كاملة النمو .

٣ — الضعف العقلي : وهو يدل على أن بعض القوى العقلية قادرة على الوصول إلى درجة معينة من النمو . والمصابون بهذا الضعف ، يختلفون القدرة على الاكتسابات الذهنية ، فمنهم من يكون ضعيفاً في البرهان ، أو في التلخيص ، أو في الحفظ ، أو في جمع الأفكار وتأليفها ، ولكنهم جميعاً يتجلى فيهم اختلاف القوى العقلية وعدم تساوي نموها .

أما المعتوهون فلا يسألون عما يعملون ؛ لأن عقولهم لا تدرك الأشياء ، ولا تجد صلة بين أنفسهم وبين العالم الخارجي ، ولا تؤثر فيهم التربية ولا التعليم وإنما تقودهم الغريزة Instinct .

أما البلهاء ، فهم أرقى عقلاً من سابقيهم . فقد ينجح الإنسان في تعليمهم ، ويغلب على الأبله ضعف اللسان ، ونقص الألفاظ ، تدل تعابيره على نقص مداركه ، وقد يظهر فيه ميل للغدر والشر والاعتداء والجبن ... وهذه أشياء تسوق إلى الجرائم كالسرقة والانتحار

أما أصحاب الضعف العقلي ، فهؤلاء ذوو الشأن في نظر علم الاجتماع والقانون ، لأن عددهم وافر ، ويعيشون بيننا ، فنجالسهم ونعاشرهم ونشاركهم في الأعمال ، لا نرى في حركاتهم ولا أحوالهم . وهؤلاء يقفون في نموهم العقلي عند درجة لا يتعدونها . فالذي بلغ العشرين من عمره ، يحاكي صبياً ذا خمس سنوات . وتغلب عليهم الخفة ، وإذا كان فيهم من يميز الحق من الباطل ، فإن ضعفه يحول دون ميله إلى الباطل . وهم لا يصغون إلى صوت الضمير ، إنما يغدون فريسة الشهوات والملذات . وتنعدم الأثرة فيهم ، ويحتقرون الناس . وهذا وذاك يسوقانهم إلى الحقد والحسد والتحايل ، وهذه حال توقظ فيهم الأثرة ، وتسوقهم إلى [illegible] والمشاكسة والشك والريبة . ويبغضون الناس والأصدقاء والأقرباء . ومن الصفات البارزة في هؤلاء (الرماية Shontanade) وهي حالة تحدث فجأة بغير اختيار ؛ [illegible] فيقومون بأعمال دون تعقل أو روية .

ولأن [illegible] بحثاً في هؤلاء المرضى بحثاً مستفيضاً . نتساءل : ما هي آراء الطب في مسؤولية مريض العقل ؟

كانت الهيئة الاجتماعية في الأزمان الخالية تنظر إلى الجناية نظرة فيها قسوة ، فتسوق الجاني إلى القتل . حتى جاء الرومان فميزوا ذا العقل السليم من ذي العقل المريض ، ولكن صعب عليهم تعيين الشرط الذي يستدعي فساد العقل . فقد يعلم مريض العقل أن ما أقدم عليه محرم لا يجوز له عمله ، ومع ذلك فهو يرتكب الجناية ، مسيراً لا حول له .

على أن هذا لا يدفع إلى جعل مريض العقل مسؤولاً عن عمله . يؤيد ذلك الأدلة المدونة في كتب الطب الشرعي ، ولكن بعض الحكام لا يزال معرضاً عن قبول المبادئ التي وضعها علماء (الانثروبولوجيا) وعلماء الفلسفة العقلية ، ويصرون على إنزال العقاب بالجاني ، لأن القتل أنفى للقتل .

أما مسؤولية مريض العقل في فترة الصحو ، فمختلف فيها . فالمحققون Juriste ، وعلماء الجنايات القدامى يقررون قسماً من المسؤولية ، تعادل ما في عقله من قسم صحيح ،

حول عظمة الرسول

كتب الكاتبون في عظمة الرسول ما كتبوا فلم يبلغوا إلا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وإنما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ وخرج من المقارنة بأنه صلوات الله عليه بطل الأبطال فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل لأنه أوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم أن الرسول والبطل من قبيل واحد ؛ وليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول . فرسالة الرسول صلوات الله عليه خرّجت الأبطال وربّت عظماء الرجال ، بل لم يعرف التاريخ عظمة في أبطاله تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم . وأين في التاريخ — غير تاريخ الرسالة — من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كما سما أصحاب الرسول ؟ بل أين — إلا في تاريخ الإسلام — من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها غير معتزل في جبل ولا مترهب في صومعة ، بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا إياهم بالحق والحزم ، من غير أن يرزأهم من دنياهم إلا بقدر القوت ؟ إن بطولة أبطال التاريخ تتضاءل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول وبينهم وبين أصحابه من البعد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفي الناس من التمس في العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره . ولو جعله عبقري العباقرة ما وفى بل ما زاد على أن جعله فردا من نوع متجدد وإن يكن نوعا نادرا في الناس . فالذي يثني بالعبقرية كالذي يثني بالبطولة ، كل قد غفل عن أن العبقريين والأبطال يوجدون في كل زمان ، ولا كذلك الأنبياء والرسل ، بله أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه .

ثم في الناس من جاوز ذلك فزعم أنه يثني على الرسول حين [illegible] أجرى الله على يديه ، أو ما أوحاه الله إليه ، كأن وحيه من عمله ، أو كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك أعظم العظماء . كأنه صلى الله عليه وسلم لا يكون أعظم العظماء إلا إذا كانت الرسالة من عنده أو كان وحيها من وحي قلبه وفكره ، كالذي يجري على قلوب أهل الإصلاح والفكر وعلى عقولهم . وليس هؤلاء ولا أولئك مهما ارتقوا ببالغي أدنى مراتب الرسالة في أنفسهم أو في أثرها في الناس .

إن كل ثناء على الرسول عما ينتقص من رسالته جهل بالرسول وانتقاص له . وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الإلهي الحقيقي المعروف في الأديان ، ويدنيها من المعنى الإنساني المجازي المعروف في كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد في النهاية للتحلل من الدين .

والمسألة ليست مسألة رغبة أو رأي ، ولكن مسألة حقيقة وواقع . فالرسالة بالمعنى الديني ثابتة للنبي صلوات الله عليه ليس في هذا شك ، وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته وإليها ليس في هذا شك أيضا ، فقد لبث في الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم ؛

غير أن علماء النفس المحدثين وعلماء الجنايات الأشياء (ماندسلي) و (لومبروزو) و (غاروفالو) و (بروكا) و (مانوفري) و (لاكاسان) ؛ يقولون إن الجاني يكون تحت تأثير عاملين : الأول (ذاتي) ، والثاني (خارجي) فلا قيمة لنظرية المسئولية في مريض العقل .

— النتيجة —

والنتيجة التي ينتهي بها البحث هي أن الطبيب الشرعي إذا دعي لإعطاء رأيه الفني في جناية فعليه أن ينظر إلى الجناية والجاني ، فيبين إذا كان الجاني مجنونا أو مريض العقل ، أو كانت الجناية بسائق دوافع مرضية . فإن كانت وكان ، كذلك ، فمعلوم عندئذ أنه كان مجبرا على ارتكاب ما ارتكب . فمن كان هذا شأنه ، لا يعد مسئولا أمام القانون عن جريمته لأنه مريض ، يجب أن يعنى به ويداوى ، فقصاصهم ظلم ، وليس على المريض من حرج .

وبعد ، فهذا ملخص الحديث الذي ارتجله معالي الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، وزير العدل ، وإنه لحديث عجيب طريف ، حري بأن أصطاده وأقدمه لقرائي .

فؤاد

ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم أعم الرسالات وأتمها كان هو صلوات الله عليه أعظم الرسل إذ أداها وأكمل البشر ، وهذا معنى يضيق عنه أن يقال أعظم العظماء .

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمراً في الناس فكانوا يثنون عليه كما يثنون على فاضل فيهم . فلما أكرمه الله بالرسالة وأكرم الخلق به تطور خلقاً آخر وإنساناً آخر ، وتطورت أمته به أمة أخرى في الأمم ، وتحقق للإنسانية مثلها المعنى الأعلى فيه وفي أمته في عهده .

إن من يعرف معنى رسالة الرسل ويلم بطرف كاف من حقيقتها لا يرى فوقها للإنسان مرتقى ولا يخطر له أن وراءها في مجال العظمة وراء . لكن الألفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها كما تحول الألفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم في الشمس والقمر والماء والشجر والسمع والبصر وسائر ما أنعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها .

إن هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته ، وفيض حكمته ورحمته ، فهي منه سبحانه [illegible] وهي على وجوده سبحانه دليل ليس [illegible] . فعظمة من عظم إنما مرده إليه سبحانه [illegible] تقهر إنما مستمدها منه سبحانه . فعظمة العظيم في الوجود مرجعها إلى موجد الوجود . هو أوجد وهو أفاض على كل موجود ما أفاض من عظمة بما أودع فيه من سر ، وبما فطره عليه من سنن جلت عن أن يغيرها أو يبدلها مخلوق في الأرض أو في السماء . فإذا مددت هذا التفكير مداً ينقله من فطرة ما يحيط بالإنسان إلى فطرة الإنسان ، وتصورت أن فاطر الفطرة سبحانه قد اختص واحداً من الناس بوحي مباشر ورسالة إلى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التي فطر عليها أرواحهم وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الأخرى — إذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لإنسان رسولا على هذه الصورة ، أيقنت أن ليس يداني مقامه في الناس أحد وإن عظم ، وأدركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول .

لكن مجرد إحاطة الإنسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع على يد رسول لا يكفي ، فقد يعضل الناس الفهم والتطبيق . فكان من حكمة الله ورحمته أن جعل رسالة الرسل تشمل شقي التبليغ : تشمل التبليغ القولي على لسان الرسول ، والتبليغ العملي بالحياة العملية للرسول .

فانظر إلى النبي أو الرسول — أي نبي من الأنبياء وأي رسول من الرسل — ما أثقل ما حمل وما أعظمه ! كلفه الله بتبليغ دينه للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه كغيره بالعمل بالدين كما أنزل ، لا يحيد عنه ولا يخطئ ، لأن خطأ منه ليس كخطأ من أحد . فالخطأ العمد منه في القول أو العمل كذب على الله ، والخطأ غير العمد إن وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله إليه ، ويبلغ هو التنبيه إلى الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على الناس باطل بحق في دين الله .

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمة الأنبياء والرسل . أحدها استنباطي يتعلق بما ينبغي أن يكون عليه النبي أو الرسول حتى يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه ، [illegible] تكون كمية في طبيعتها لأنها تتعلق بمقدار ما بلغ الرسول من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليغ من أذى ، ومقدار صبره على الأذى في سبيل الله ، ومقدار تعدد نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها وليرقى بها ، ولينظمها طبق سنن الله في الفطرة . ثم هناك معيار إجمالي آخر ما هو أصاب الرسول من نجاح في رسالته كما يبدو من آثارها في الناس .

فهذه معايير عدة صالحة لأن تكون حسابية كما ترى . وتطبيق أي هذه المعايير يحتاج من غير شك إلى إحاطة وجهد وتوفيق . لكننا لسنا في حاجة إلى التطبيق التفصيلي لتبين أن محمد بن عبد الله صلوات الله عليه هو أعظم الرسل حقاً وأكمل البشر . فرسالته أعم الرسالات وأرقاها لم تدع ناحية من نواحي الحياة الإنسانية للفرد والجماعة إلا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة أحسن تبليغ وأبينه وأتمه ،

ليلة ميلاد الرسول

أطلت على الأيام والكون مشرق ... ونور الهدى في أفقه متألق
فيا ليلةً فيها الهدى لاح نوره ... فأحيا الآفاق فيضه المتدفق
تجلت بسقياس الجمال وتألق ... عروس القوافي في سمائك تنطق
وأيُّ جمالٍ عبقري حويته ... له الملأ العلويُّ يرنو فيعشق!
وكل الورى ... حبيبة ... وأضحى بفيض الحسن منه يرنق
جمالٌ من الأزمان قد لاح فجره ... فلاح من الأجيال منه التألق
جلالٌ مدى الأحقاب ... ولا الدهر يبليه ولا هو يخلق
جمالٌ بأسرار النبوة حافلٌ ... فمن خاطر العلياء إليه تشوق
فيا ليلة تزهى بأعظم مولد ... أفاضته ... القلوب وتخفق؟
يتيمةُ دهرٍ أنت يا ليلة التي ... بنور بهم بالمكرمات معرق؟
وهل كان في دنيا الورى كمحمد ... وليدٌ به فخرٌ للأنام ...؟
هو المصطفى من ... الكون ... ... أتته روح ...
وهبَّ النسيم العذب يحمل نشره ... وحرك ريا العطر ...

وفاض على الدنيا بهاءُ جماله ... فأحيا مغانيها رواء ورونق
ففي كلِّ نجد من رباها خميلة ... وفي كلِّ وهد جدول يترقرق
وفي كل غصن طائر مترنم ... طروب الأغاني، أو حمام مطوق
وفي كل فج من سماء منارة ... بلألائها نور الدجى يتمزق
فما البدر إلا لمحة من أشعة ... وما ... في الأشعة رونق
لقد صدحت بأم القرى دوحة الهدى ... فصدحك محبوب، وعزك يونق
أفق فجر الشرق البلاد بنوره ... فنورك بالفيض الإلهي مشرق
عطاؤك فرد ليس في الدهر مثله ... عظيم له المجد الأثيل مطوق
إذا مثل الأجيال من آل يعرب ... لديه، فكل خاشع الطرف مطرق
أتى المصطفى الهادي وأبناء يعرب ... عليهم ظلام الجاهلية مطبق
يعانون ذلا، لا يطاق، وفاقة ... فبعضهم عاتٍ، وآخر مملق
فأرسل فيهم أحمد من رشاده ... رشاداً، به الفوز المبين محقق
وأشرق فيهم من هداه هداية ... تزف فجنح الضلال وتمحق
وأولاهم فيض التراحم والندى ... فكل ربيع روعة وتألق
... ... فمن بعضهم خافق القلب شيق
وكون ... أمة ... فشيدها الصرح الجبار معمق

بالقول والعمل . فالقرآن الكريم هو ... لم يتبدل منه حرف ولم يسقط منه حرف . والسنة ... تفسير القرآن كلام الله تفسير صدق بالقول والعمل ، وأثر الإسلام في الناس في عهد النبي وفي الإنسانية من بعده لا يزال يعجب منه العاجبون

إن من العجب العجاب أن ينهض إنسان أيا كان بكل ما في الإسلام من تكاليف وتعاليم وتشريع — إن الإنسانية كلها أفرادا وأمما لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها الإسلام بعد الحقبة الأولى التي طبق فيها الإسلام أتم تطبيق في نصفها الأول في عهد الرسول ، وأقرب تطبيق في نصفها الثاني في عهد الخلافة الراشدة ، ولكن استطاع محمد صلوات الله عليه أن ينهض بعبء الإسلام كله في نفسه وفي الناس حتى لم تجد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفا له إلا قولها : « كان عمله ديمة » و « كان خلقه القرآن » ! أشهد أن محمد بن عبد الله هو رسول الله حقا إذ كيف يقوى على سيرته صلى الله عليه وسلم إلا رسول ، ورسول محص الله فطرته ومحصها وأعدها ... سبحانه من بين البشرية كلها طبق ... الاستخلاص والإعداد ، حتى إذا آن الأوان وجد في البشر إنسان واحد تمكن هو وحده الصالح لحمل الرسالة السامية الكاملة ، وقوي هو على العمل بها : أصولها وفروعها ، في نفسه وفي الناس .

هذا هو القياس الحق لعظمة الرسول صلوات الله عليه . أنه وحده نهض بما كلفت به الإنسانية قاطبة فلم تستطعه كله ، وفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم في الناس أجمعين ينهضون به جملة إن استطاعوا ، ويتأسى التأسي في ناحية منها فيسمو في الناس مثلا من أمثلة الكمال .

وبعبارة أخرى إن سنن الله سبحانه التي يتحقق بها الكمال الإنساني قد تحققت فيه صلوات الله عليه فصارت حقيقة واقعة في الكون ، مجتمعة في فرد ، ومنتشرة في أمة ، وصار ذلك الفرد هو المثل العملي الأعلى للإنسانية ، لا يمكن أن يبلغه الناس على مر الزمان وإن اجتهدوا ، ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا !

محمد أحمد الغمراوي

ذكرى المولد

هيهات يحسن تمثالاً فيك إنسان   عي البيان وحارت فيك أذهان
قد كان للقول ميدان تصول به   في كل ضرب من الإبداع فرسان
فما يقول امرؤ يبغي الثناء وقد   أثنى عليك بمحض الحمد فرقان
عذر الأديب على الإسهاب أن له   وقد كملت شفيعاً وهو إنسان
فكنت كالنور لا يخفى على بصر   لكنما سره في الذهن حسبان
تفرق الناس فيما جئتهم شيعاً   وكلهم نا كص للرأس حيران
كم آية لك في الأسماع مشرقة   كأن سامعها المأخوذ نشوان
شمائل كنّ من طيب يضمن كما   يضوع في جنبات الروض ريحان
غيظ الحسود لآيات أتيت بها   وميت الغيظ في الحساد إحسان
فجاحدوك على جهل ومعترف   بالحق والناس أصناف وألوان
وما يضير شعاع الشمس إن جحدت
أنوارها من عمار الناس عميان
شجا نساء قريش ما منيت به   فدمعهن على الخدين [illegible]
يبكين يتماك من عطف ومرحمة   [illegible] أن [illegible] القوم [illegible]

وهل درين بأن الدهر أشرفه   يتيم منتسب باليتم مزدان
لم يغن أغنان تيجان الملوك سوى   يتم اللآلئ إن اليتم أغنان
ورفع الله أيتاماً ذرى شرف   تطاول النجم عنها وهو خزيان
شعبت صدع صدور طالما نفثت   به من الحسد المذموم ديدان
نصرت كل هضيم وانتصفت له   من ظالم فغفت في الأمن أجفان
خفضت جنحاً لمظلوم فلاذ به   كما تلوذ بجنح الأم ولدان
كم عن عبد بهدي الدين وارتطمت
ذليلة في مهاوى الكفر تيجان
أشهرت سيفاً على الباغين تنذرهم   وخير ما منع الطغيان طغيان
فأصبح القوم في صف سواسية   وليس في الناس أحرار وعبدان
بعثتها صرخة لله داوية   أصغت لها من صميم القوم آذان
أصغت من كان في آذانه صمم   فهب ذو وقر وارتاع غفلان
أتيت والناس أنعام مشردة   [illegible] وصدور القوم بركان
[illegible] من جهل عامة   حمى القريب وما للخلق أركان
[illegible] على [illegible] حسار   وكل جار على الجيران ثعبان
[illegible] طالما نجمت   به شيوخ وصلت فيه رهبان
[illegible] الليل عن فجر طالعت به   فحاد عن غمرات الجهل حيران
حررت قوماً من أغلال شقوتهم   بنعمة العلم إن الجهل سجان
وكم من الناس في الأحياء تحسبهم
لكنهم في جنود العقل أوثان
ورب حر سجين في شقاوته   إن الشقاوة أغلال وأرسان
تدوت باسمك الماحي طرب   وغادة الطير إنشاد وألحان
شاعت بنفسي من ذكراك أغنية
كأنني في حيا الكأس سكران
تهيجني ذكريات منك ما فتئت   كأنها في حنايا الصدر نيران
وأعذب اللحن ما غناه ذو شجن
هاجت بلابله في الليل أشجان
حملت قلبي قرباناً إليك وما   لدى اليتيم إلا القلب قربان
فاقبل هدية من وافاك معتذراً   عن قلة إن خير العرف غفران

دمشق   عدنان مردم

مشوا في سبيل المجد [illegible]   [illegible]
[illegible]   [illegible]
فصولاً لهم فيها المتون صواخب   وأسيافهم موت إذا هي تخفق
لتصبغوا الأجيال عزاً ورفعة   فهم في ميادين المفاخر سبق
وقد أدركوا في ظل راية أحمد   مراماً بعيداً في العلا ليس يلحق
ودك صروح الشرك بيض سيوفهم   ودانهم منها المتون فأشفقوا
ومن رخص النفس العزيزة للعلى   بنيل قصده بالعز وهو الموفق
ومن يتبع نهج المساواة والإخا   فذلك أولى بالحياة وأليق
فيا خالقاً من أمة الضاد أمة   عليها لواء العبقرية يخفق
ثمرت بأبناء الجزيرة للعلى   ففي كل أفق كوكب يتألق
سننت لهم شرعاً به يدرك المنى   وينمو به غصن الرجاء ويورق
وعلمتهم درس الحياة وسرها   ووفقتهم في نهجها فتوفقوا
وأنطقتهم آي الكتاب ، وإنه   حنان وعدل ، بل هدى وترفق
سلام أعظم الدهر با لاح شارق   وما هب روح بالهداية يعبق
يخلد ذكرك الزمان ، وإنما   لأحرى بما فوق الخلود وأليق

الكاظمية — العراق   علي جليل الوردي

من وحى المولد النبوى :

مولد النـــــور

بين جنح الضلال والترهات   واختلاف الآراء والنزعات
والشعور الضرير يسعى فى التيـ   ـه وقيد الضمير شر الصفات
وحياة العباد فى كل صوب   ظلمات تسيل فى ظلمات
والنفوس الكرام ، ياهول شعرى !
قذفت حقـــدها على العتبات

بينما القوم فى ضلال عقيم   والدجى جاثم على الربوات
لاح فى الأفق من سنا الله نور
خالد مجده بيسيل السمات

غمر الأرض والسما ضياء   وسرى فى الحياة روح الحياة
أزهر الجـدب يوم لاح وعمّت
نعمة الله يانع الثمـــرات

وجرى فى الوجود روح من الحب   يثير الحياة بعد الموات
بعد ما كانت الحيــاة رياء   وضمير الحياة عين الطغاة
بدّد الله ما من الجهل دهراً   مرسلا بالهدى نبى الهداة
صادق القول والوفاء كريماً   عربياً مبـارك الغدوات

* * *

أنا عبد يقدم الروح شعراً   طاهر الحب طاهر النفحات
يتجلى الإيمان فيه نشيداً   هل رأيت الإيمان فى النغمات
صغته من سناك يا باعث النو   ر يضىء النفوس والترهات
ليتنى أستطيع أن أركب الرو   ح إلى عالم وضىء الصفات
عالم الخلد حيث ألقاك نوراً   ينشر الهدى فى جميع الجهات
من لهذا النبى والأمر يسرى   بين شر الهوى وشر الجناة
من له والدجى منيخ عليه   والأمانى تغيض فى الجنبات
عجبا لم يرع ولم يرهب القو   م ولكن مضى شديد الثبات
ومضت حوله نفوس كرام   طهرت روحها من النزعات
بارك الله فى القليل وخير   من كثير مبارك الغايات

وإذا الله رام نصراً لقوم   بلغوا النصر من حصون الطغاة
وجرى بينهم من الله هدى   يتفق بنوره كل آت
النبى الكريم يجهد فى البـ   ـر ويطوى الفلاة تلو الفلاة
ساعياً والهدى يضىء حواليـ   ـه ويرعاه خالق الجنات
هاجر الحق فى ركابك لما   بارك الله نلكمو الخطوات
ساعة خلدت على الدهر معنى   خلد الدهر طيب الثمرات
سطعت شمسه بنور جديد   وتبدّت تختال فى اللمحات

* * *

قد رموه بكل شرّ   ... ورماهم بآية البينات
عجباً مالهم يخرون صرعى   أين فرسانهم شديدو القناة
مالهم روّعوا فولوا فراراً   وتولت قلوبهم خاسرات
هل رأيت البيان يقهر جيشاً   إن قتل الأحرار فى الكلمات
كلمات تصول فيهم وتسرى   سريان الحسام فى الهامات
واضحات كالشمس فى صحوة الظهـ
ـر تبيد الشكوك باليقنات
آية الله آية الآيات   من سنا الله خالق المعجزات
... فى قسوة الدا
ء وفى لحه الجوى والشكاة
أعلات التى راحت تواسيـ   ـه فكان الشفاء فى الأعلات
لمست كفه الخطام فأحيت   جنبات الحطام فى لمسات
يا رسول الإله عبدك شاك   موجع هدّه السقام العاتى
كلما طالع الحياة ابتساماً   عاقبت قلبه على البسمات
روحه مفعم بكل نبيل   من كريم الصفات والغايات
شاعر روحه يذوب مع اللحـ
ـن كذوب القلوب فى النظرات
ود لو يستطيع أن يركب الرو
ح إلى عالم وراء الحياة
عالم الخلد حيث يلقاك نوراً
ينشر الهدى فى جميع الجهات

الاسكندرية   حسين محمود البشبيشى

صـــــلوات فكر

فى محاريب الطبيعــة !

نظرتان : عرفتُ فى نفسى نظرتين إلى الطبيعة : حيناً أنظرُها كراسمٍ صورةً فنيةً كبيرة الحجم جداً ، فهو يبتعدُ عنها ليأخذ منها وضعاً تبدو فيه وحدةً مُجتمعةً متناسقة واضحة الخطوط والمعانى التى أرادها راسمُها ، وتترك فى النفس أثراً واحداً رهيبَ الوَحى .. !

وحيناً أنظرها من قُربٍ ينطمس معه وجهُها العام وتختفى وحدتها الجامعة ، وتبـــدو أجزاؤها وأصباغُها المفصَّلة المُميَّزة .

الأولى أتعمدها حين أريد إدراك معناها العامّ بفكرة واحدة ... وهى نظرة تحرك فى نفسى نوازعَ الشّعر والوجدان والاستغراق الحالم والإيمان المستسلم والشعور بالضآلة بين غمرات الكون ورحابه وأبعاده اللانهائية التى توحى إلى العقل بالصمت وترك الثرثرة ... والثانية أعمدُ إليها حين أريد أخذ المبادىء والأجزاء ودراسة المكانات التى أجدها فى صفحاتها لأملأ بها أو عيتى ، ثم أنطلقُ وأتحدث وأثرثر لأثبتَ وجودى .. !

وهى نظرة تبعث فى نفسى كفاية العلم والعمل والإحساس بالذاتية الإنسانية التى تؤهّل الإنسان وتشجعه على أن يجلس بين يدىْ بارىْ الطبيعة كتلميذ بين يدى أستاذه ... فله الحقُّ فى المناقشة والاستفسار والاقتراح ! وله الفخر والزَّهْو أن يكون فكرُه قد سما حتى نفذ إلى بعض أسرار يد الله فى الصنعة ! وله الجرأةُ أن يمدّ يدَه إلى مصانع الخالق فينقلَ شيئاً من مكانه ، ويُزاوجَ بين شىءٍ وشىءٍ ، ويَفصلَ بين سرٍّ وسرٍّ ، ويحاول فتح ما يجده من الأسداد والأغلاق ...

وإنّى لجدُّ حريصٍ على أن يظل عقلى وقلبى دُولةً بين هاتين النظرتين ...

وإنى لأفرُّ من هذه لتلك ومن تلك لهذه ؛ حتى لا تأخذنى الأولى إلى تعطيل قواى ، والشعور بالعجز المطلق .. ولا تأخذنى الثانية إلى الغرور والادعاء ونسيان موضعى الحقير من الكون ومصيرى المجهول إلى ظلمات الفناء !

قوى جبارة : إذا تخيلتَ عُباب البحر وزُرقته حتى يصل إلى سطحه فى طرفة عين ... وإذا تخيلتَ جوفَ البركان يمور ما فيه ويضطربُ بحُمَمه وسُمومه وحميم وجحيم ... وإذا تخيلت اندفاع الريح فى إعصارٍ مجنون يقفز من قمة جبل إلى أخرى ، ويسّير الوديان والسهول ويدوس المراعى ويقتلع الشجر ويهدم الدُّور فى خطفة صاعقة ... وإذا تخيلت سرعة الشموس والنجوم الكبرى فى دورانها التى يكاد يأخذ الفكر الراصد ... وإذا ما كدت أن العالم ملىء بهذه الأهوال ، التى لا يقبل الجهد البشرى بتحملها ؛ لأنه لولا أن الأرض التى يسير فيها كل شىء بميزان علمى دقيق تلتقى فيه القوى متناسبةً متوازنةً ... وإذا تخيلت سكان العوالم الجبارة الذين لابد أن يكونوا من القوة والسطوة بحيث تكون هذه الأهوال مراكبهم وملاعبهم ... وإذا تيقنت أنه لابد أن يكون هناك فكر جبار يصاحب هذه القلعات المارمة ويسيّرها كلها بعصا واحدة لئلا تتفجر جامحة أو تلتقى طاغية متناقضة مخربةً نظامَه ناقضةً أحكامَه ... إذا تخيلتَ وتخيلتَ .. ثم تيقنتَ وما كدتَ ... فاعرف قدرَ الذى يجبُ أن تفرَّ إليه لتلوذَ به وتحتمى فيه من أهوال النار والهواء والماء والتراب الثقيل الفادح ! الذى وضعك فى هذه الأرض بموضعٍ أمينٍ كمهدِ الطفل تهيئه الأمُّ .

إن سطح العالم الذى تشاهده عيناك سماً كما هادئاً فوق فى السماء ، وتحت قدميك فى الأرض ، إنما هو غطاء قدرٍ هائلة تضطرب فيها كل عناصر المادة وتعترك قواها وطاقاتها ، مما لا يمكن أن يدركه إلا الذين أيديهم فيها وعيونهم عليها من زبانيةٍ ودفّاعين ورُعاةٍ وساقةٍ وقادةٍ ...

أولئك الذين يقبضون الرياح ، ويحبسون البحار ، ويديرون دولاب الليل والنهار ...

الكائنات جبارة عارمة ، ولكن القيود والقوالب

ساقطة حازمة ! تحبس كل كائن في دورته الأبدية فلا يستطيع أن ينسل من حظيرة لأخرى إلا حين الانطلاقة الكبرى !

معامل ومناجم : وراء سطوح الحياة تقف قوى وديعة صبور حاذقة دءوب تفطر وفود البذور والنطف فتتلقاها وتدير منازلها وتبسط مناسجها وتنسج منها ديباجة الحياة وتكونها وتصقلها وتخرجها موقعاً عليها من مهندس واحد !

وددت لو كنت الفنان النابغ « والت دزني » لأخرج ما في نفسي من الصور التي أتخيلها في جو هذه الفكرة !... ما الذي يوقظ البذور والنطف إلى أسرار وراثتها ويدفعها في طريق سلالاتها ؟... ما الذي يدفع البذور إلى التفرع والعلو ، والجرثومة المنوية إلى الازدواج والنمو ؟... ما الذي يخطط أجسام الأجنة ويخطط وجوهها وينقل أسرار الأنواع من الآباء للأبناء ؟... ما الذي يأخذ الطفولة من العجز والضعف والغباء والتفاهة إلى القدرة والقيمة والتسلط ثم يردها إلى الضعف والعجز والفناء ؟... ما هو العامل الخفي في دفع الخرائم الحية إلى مجرى الحياة حتى تصل إلى التركيب والتعقيد

الأيام واحدة والليالي واحدة ! الشمس والقمر والرياح والأضواء والأتربة واحدة . ومع ذلك فاليوم الذي يحيي موتاً هو ذاته الذي يميت حياة !

ما هو هذا الشيء الدقيق الخفي العميق البعيد عن الأنظار والمجاهر والأرصاد ، السارب إلى ظلمات الأرحام أرحام النبات والحيوان فلا يدع سر نوع يلبس جسم آخر ؟

لماذا لا تنبت الغلال عقارب ، والحنظل تفاحاً ، والشوك حريراً ووروداً ؟

أيها العلم الخفي الهادي أقدام الحياة بين القوى العمياء ، الحارس الحافظ لضعفها بين عوامل الموت والجمود والجبروت ، المقيم الحواجز بين الأنواع والفصائل لمنع الاختلاط والطغيان ، القائل لكل بذرة وجرثومة : إستيقظي وخذي طريقك إلى سلالتك وأشياعك ...

هل تغيب فكرى أمامك غير هذه الأصوات الخافتة التي كأن روحي ينتزعها من أعماق كل كائن ليناديك بها في صلاة جامعة ؟ !

جثث الماء : حينما تهب على وجهي الرياح الباردة ، أسافر بخيالي إلى حيث منشأ ميلادها هناك ... حيث تجتاح العواصف الثلجية البوادي والبحار وأريد رسم « لوحة » للطبيعة عند القطب .. حيث أرى الشمس البيضاء والهواء المقرور والماء المشلول والتراب المستخفي بأكفان الثلوج .. حيث تعوى الريح المجنونة في السكون الموحش الواجم الجاثم على البوادي والبحار .. هنالك مكان وحي ! هو وحي العدم والتجمد ... حيث قلب الأرض بعيد بناره ودفئه .. حيث يسقط الماء وهو أصل الحياة جثة ميتة جامدة ... الماء الذي يحرك عوامل الحياة يغدو جسداً مشلولاً ! سقط في قبضة قبحر من زمهرير العدم الأزلي ...

هنالك تبدو الشمس أم الحياة ، وهي تمد خيوط أضوائها وإشعاعات حرارتها إلى قلوب أحياء تلك الأصقاع كما تمد أم يدها إلى أبنائها الضعاف الهزيل ...

هنالك طبيعة ذات شيب وعقل ، برد في جسمها الدم وقل فيها السفه الذي يحدث عن أتون خط الاستواء الذي تغلي مراجله في أجسام سوداء تحترق فيها عوامل الحياة .. طبيعة معجمة صامتة علمت أبناءها الصمت والإعجام إلا في قهقهة الدببة وصراخ كلاب الماء ...

وهنالك قد نتذكر ما في قلوبنا من حرارة قبست من مصدر مجهول !

نحن في غفلات عما يدور في الأكوان ! غفلات قلوب لا غفلات أفكار ... إذ أننا نحصل « العلم » ونحفظ قضاياه وكلماته في « حوافظنا » الباردة ولا نرسله للقلب « ليشعر » به ويضفي عليه من أحاسيسه ما يجعله حياً في الروح .

ولابد للقلب الإنساني من أن يسير وراء الفكر أينما سار ، فيرى هذا ليشعر ذاك ... لا بد من أخذ الطبيعة بالقلب كأخذها بالفكر .

ألا أن الحياة رحلة ممتعة للذين جعلوا رحاب القلب

أدب القاضي الفاضل

رأينا في المقال السابق كيف سلفت للقاضي الفاضل زعامات ثلاثة هي : الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة الأدبية . والناس منذ القدم لا يستطيعون أن ينظروا إلى الأدب دون أن ينظروا في الوقت نفسه إلى صاحب هذا الأدب ، أي أن أدب العظيم لابد أن يكون عظيما ، وأدب رجل أقل منه عظمة لابد أن يكون كذلك وهكذا . ومعنى ذلك أن شخصية الأديب تنعكس على أدبه فتضفى عليه ما شاء من صفات العظمة . والحق أنه ما دام الأدب لسان العواطف وأداة لنقل الشعور ، فالناس معذورون دائما في أن ينظروا إلى الأدباء هذه النظرة غير المنصفة ، وليسوا مخطئين كل الخطأ فيها . والشهرة الأدبية نفسها بمعنى رزق الرجل ، ومن الناس من وسع الله له في رزقه ومنهم من قُدر عليه . فلا نسأل إذن كيف راجت طريقة الفاضل الأدبية في عصره وتكيفت أذواق الناس [illegible] فلا غرابة في ذلك — إذ لو أن زعماء الأدب في عصرنا هذا قد أريد بهم فاختاروا لأنفسهم طريقة أدبية [illegible] الطريقة التي ألفها منهم لوجدنا أنفسنا بعد وقت قصير نتذوق طرائقهم وننفر مما عداها من الطرق .

قامت الطريقة الفاضلية في الكتابة على السجع والجناس ، وعلى المقابلة والطباق ، وعلى تشخيص المعاني وتجسيم الجماد ، وعلى غير ذلك من المحسنات اللفظية التي سنشرحها والتي يعرفها الناس إلى عصر هذا الأديب البارع . والألوان كثيرة وقريبة في متناول كل رسام ، يستطيع تأليفها وتركيبها ، ويستطيع في الوقت نفسه أن يحصل على ريشة يرسم بها ما أراد . ولكن ريشة الفنان الماهر هي وحدها التي تستطيع أن تخرج من هذه الألوان لوحة فنية ناطقة ، أو هي وحدها التي تستطيع أن تشخص لك المعاني تشخيصاً يخيل إليك فيه أنها أناس تتحدث إليها وتتحدث إليك ، وتحرك مشاعرها وتحرك مشاعرك ، وتضطرب فيها وتضطرب فيك ، وتخلق بينكما هذه الحياة الشعورية التي تنعم بها وتود إلا تفارقك . ومعنى ذلك كله أن الفنان رجل موهوب وأن سر عظمته ليس في صندوق ألوانه وأصباغه ، وإنما هو في قدرته على الاستفادة من هذه الألوان والأصباغ . وذلك إذن سبب آخر من أسباب عظمة [illegible] الأدبية كما سنرى بعد أمثلة منها .

ولكننا إذا تحدثنا عن الفن ، وننظر إلى الأدب على أنه فن ، فنتدرك شيئاً آخر يغيب عن أذهاننا أحياناً ، وهو أن بيننا وبين القرون الوسطى فروقاً من حيث الحياة ، وفروقاً من حيث المزاج وفروقاً من حيث الحضارة ، ولابد لهذه الفروق كلها من أن تترك أثرها في الأدب . فأما فرق ما بيننا وبين القرون الوسطى من حيث الحياة فيتلخص كله في أن حياتنا قائمة على السرعة ، وأن حياتهم قامت على الأناة ، فنحن الآن في عصر الآلة ، والآلة هي التي تصنع لنا الحذاء الذي نلبسه ، والعامل الذي يديرها لا يشعر باللذة التي كان يشعر بها صانع الأحذية في تلك الأزمان . ومن ثم أصبحت الآلة سببا في حرمان هذا العامل الحديث حرماناً قاسياً من تلك اللذة الفنية التي كانت تملأ نفس الصانع القديم بهجة ، فيتعوض بهذه البهجة عن نقص الأجر الذي كان يأخذه وعظم الجهد الذي يبذله .

وليس شك في أن الآلة التي مني بها الأدب في العصر

هي رحاب الفكر ، ورحابَ الفكر هي رحابَ الأرض ، وما استطاعوا أن يدركوه من رحاب السماء ، فملأوا عيونهم من مشاهد الطبيعة كلها ، وسمعوا إلى أوتارها كلها وشنشنوا أرواحهم بأنغامها قبل الرحيل ...

جزى الله « بيرو » ، و « أمندسن » ، و « نانسن » ، و « شاكلتن » ، و « سكوت » ؛ وغيرهم من الرحالين الرُّوَّاد الذين أشاروا إلى ملكوت الإنسان هذه الأصقاع القطبية النائية التي كان النهار والليل يتحولان بها في خفاء ، وظلت ضنينة بأسرارها حقباً ضاربة في أعماق الأزل ، حتى أتى ابن الإنسان .. ابن الكفاح والشوق إلى قهر العوامل الجبارة واقتحام العقبات الكأداء ، فانتزعها من يد المجهول وأدخلها في رحاب العلوم ... عبد المنعم شميس

الحديث هي « الطبعة » . فمنذ ظهورها والأدباء يحاولون الإسراع في الإنتاج ، ولكن هذا الإسراع نفسه كان لصالح الثقافة وضرر الفن . فلقد كان من نتيجة ذلك أن قدم الأدباء للجمهور أدباً لا حظ له من الدقة والأناقة ، ولا نصيب له من الأناة والإبطاء ؛ فأقبل الجمهور على هؤلاء ، كما يقبل الناس في إيطاليا في عصرنا هذا على آلة تصنع لهم (المكرونا) ، يسقطون في بعض خروقها قروشا ، فتسقط الآلة في حلوقهم طعاما ، تنشغل في ازدراده أفواههم ، وهم وقوف أمام الآلة حتى تسكت هذه عن عملها ، فتسكت الأفواه عن مضغها ، وهكذا ينتهي القوم من وجبتهم ليعودوا سراعا الى مصانعهم أو مكاتبهم ليقضوا فيه بقية اليوم .

فأين هذا كله من تلك اللذة التي يتمتع بها أصحاب الدور أو القصور ، وهي مزدانة بكثير من الورود أو الزهور ، وعليها ألوان كثيرة من أطعمة لذيذة وضعت في آنية الذهب أو الفضة ؟

ذلك إذن هو فرق ما بين حياتنا نحن وحياة الناس في العصور الوسطى . حياتنا كما ترى قائمة على العجلة ، وحياتهم قائمة على اللذة ، وعملنا آلى داخلى ، وعملهم فنى في أكثره ... وكان من نتيجة ذلك أن كل ذى مهنة في عصرنا أصبح ضائقاً بها غير مستريح لها ، يتمنى اليوم الذى فيه يتركها ويجرب حظه في مهنة أخرى . أما العصور الوسطى فكل ذى عمل فيها غارق في هذا العمل ، مستمتع به لأنه إنما يعالجه معالجة فنية تورث صاحبها هذه اللذة التى نتحدث عنها . والمقارنة بين آثارنا والآثار الأدبية التى خلفها لنا الفاضل وأمثاله توضح لنا هذه الفروق كلها بجلاء لا يقبل الشك .

أما الحضارة — كأمر من الأمور التى ينبغى أن نلاحظها عند ما ندرس أثراً مصرياً أو شرقياً من آثار القرون الوسطى — فنحن نعلم أن القاضى الفاضل وُلد له مذهبه هذا وهو بمصر الفاطمية . وفى العصر الفاطمى بلغت مصر من الحضارة المادية شأواً لا سبيل هنا الى وصفه أو تلخيصه بحال ما .

تلك الأثواب المزدانة بأنواع القصب ، وتلك الأستار المزركشة بشتى الصور أو بالذهب ، وتلك الجدران التى تزدحم فيها النقوش ، وتلك الأرض المرصوفة بالفسيفساء ، وتلك التماثيل الرائعة من الرخام أو البلور وغيرهما من كرائم الأحجار ، كل أولئك كان له أثر واضح فى الأدب الرسمى الذى صدر عن كتاب ذلك العهد ووزرائه حين امتلأت أعينهم وعقولهم بجماله وبهجته ورواءه .

والخلاصة أنك من أدب الفاضل دائما أمام غادة حضرية صقلتها الحضارة وجلاها النعيم ، قد وقفت أمام مرآتها أكثر يومها تقص شعرها وتصففه على الجبين بطريقة تغرى الناظرين . فاذا فرغت من رأسها التفتت بعد الى وجهها فصبغته بأصباغ تتحول به الى مخلوق جديد : فمن حاجب لها توشك أن تمسحه من وجهها لترسمه بقلمها من جديد ، ومن ثم تضع عليه صبغاً يأخذ به الفم حجماً وشكلاً كما تشتهي الغادة أو تريد ، ولو قد استطاعت هذه الغادة أن تبدل أنفها بغير أنفها وشكله الخارجي لفعلت ، ولكنها تنتقل بعد ذلك وتنحدر منه الى صدرها وجيدها فتزينهما بما تختار من أصناف الحلى والعقود ، ثم من ذلك تنتقل الى اختيار الثوب الذى يتفق وكل هذه الفتنة !

والغريب أن هذه الغادة التى يبدعها لنا قلم القاضى الفاضل تأبى أن تخرج من خدرها مستترة أو كالمستترة التى تطمع فيها من ينظر إليها من المارة فى الطريق ، وإنما تطلع عليهم بهذه البزة الحسنة والهيئة المستحسنة ، وهى مع هذا كله أدنى الى الجد وأنأى عن الطيش ، فيزداد الناس فتنة بها وإجلالاً لها ، وتنحسر عيونهم عنها وهى ممعنة فى إعجابها بنفسها إمعاناً يخفيه ما تتكلفه من جد وتحاوله من عقل .

(وبعد) فلما تحدثنا عن هذا الأدب الفاضلى نفسه ، أو نعرض شيئاً ولو بسيطاً من نماذجه ، ولا تحدثنا كذلك عن شيء من مصادره وثقافة صاحبه ، فليغفر لنا القراء هذه المقدمات الطويلة ، وموعدهم فيما يريدونه الأسبوع الآتى بمشيئة الله تعالى .

عبد اللطيف حمزة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر